

خطاب 76 رسالة الى العراقيين في يومهم
الدكتور إبراهيم الجعفري يشارك في احتفالية حزب الدعوة الإسلامية التي أقامها
بمناسبة يوم العراق

بسم الله الرحمن الرحيم

قال الله (تبارك وتعالى) في محكم كتابه العزيز:
((وذكرهم بأيام الله إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور))

كل الأيام لله، لكن بعضاً من هذه الأيام تقتنر بمحن ومصائب وتحديات تتطلب صبراً، والبعض الآخر منها تقتنر بالانتصارات والإنجازات؛ فنتطلب مدحاً وثناءً وشكراً لله (تبارك وتعالى)؛ لذا جاء المعادل القرآني بـ:
((إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور)).

مع إطلالة ذكرى تأسيس الجيش العراقي الـ 91، ومن خلال هذه المسيرة التي امتدت قرابة القرن من الزمن لا يسعني إلا أن أحيي أبناء قواتنا المسلحة بمراتبهم، بتاريخهم، ومعاركهم، ومشاركاتهم الوطنية التي عبرت عن ضمير العراق، وإني لأدرك أن ظروفًا استثنائية أحاطت بجيشنا العزيز عندما تسلط بعض الحكام، وحاولوا أن يحولوه إلى جيش السلطة بدلاً من أن يكون جيش الشعب.
لا غرابة أن يصبح في لحظة سُرِق فيها التاريخ أن يكون دخيلاً على القوات المسلحة برتبة (مهيّب أول ركن) بين عشية وضحاها؛ ليسوق الجيش إلى سلسلة من المعارك العدوانية سواء كانت معارك وحروباً أهلية في بلدنا الحبيب، وقمع الانتفاضات، أو حروباً عدوانية على دول الجوار (الجمهورية الإسلامية)، واحتلال الكويت، والاعتداء على المملكة العربية السعودية، غير أن أبناء القوات المسلحة يبقون أشاوس وأبطالاً، ويبقى الفكر الوطني العراقي يملأ ذاكرتهم، ودماء الشهداء تتحرك في عروقهم؛ حتى يعود اليوم الذي نرى الجيش يسطر أروع ملاحم البطولة، ويأبى أبناء قواتنا المسلحة إلا أن يزودوا عن العراق الحبيب؛ فيقدموا صدورهم دروعاً لحماية الشعب، ويسهروا على راحته واقتصاده وأمنه.
ولأن هذه المناسبة تقتنر بأربعينية الإمام الحسين (عليه السلام) عمق الشهادة، ووشاح التضحية فلا بد أن نمزج غير متكلفين بين هذه المناسبة الرائعة؛ لنستمد منها قوة فوق قوة، وتضحية فوق تضحية خصوصاً أن سيد الشهداء أبي إلا أن يكون الأسطورة اليتيمة في التاريخ من حيث التضحية، وكل ملاحم البطولة تتطلع للحسين (عليه السلام)؛ لأنه بلغ الذروة، وانفرد بها.

لذلك لم يكن الحسين (عليه السلام) فقط عمقاً في التضحية، وعمقاً في الفكر والقيم إنما سرعان ما اتسع ليكون أمة تردد نشيد الخلود على شفاه أطفالها ونساءها ورجالها، وها هي اليوم الجماهير المليونية تمشي زاحفة من مختلف مناطق العراق والآلاف بل عشرات الآلاف الذين يثمنون العراق يحدهم الأمل أن يتشرفوا بزيارة الإمام الحسين (عليه السلام)، وبذلك يشكل هذا المظهر الرائع الجليل قاعدة وبنية

تحتية للدولة، وقاعدة للشعب حتى يلتقي الجيش والشعب لعله في مقطع جديد لم تشهد فيه مقاطع التاريخ أن يقف الشعب إلى جانب الجيش بهذه القوة، وهذه الدرجة من التلاحم يوم الـ 31 من العام الماضي، ونحن ننعطف من عام إلى عام، لكنها ليست كبقية الانعطافات إنها انعطافة نوعية؛ لأنها اقترنت بالاستقلال وخروج القوات الأجنبية؛ وبذلك يسجل شعبنا إنجازاً وطنياً تاريخياً، ويدخل إلى جانب شعوب العالم التي تحتفل بأعياد الاستقلال كثورة الاستقلال في بريطانيا 1688، وثورة الاستقلال في أميركا 1783، وعيد الاستقلال في فرنسا 1789، والثورة الروسية 1917، والصينية 1949، والثورة الإسلامية 1979.

يسجل الشعب العراقي ملحمة جديدة، ويدخل في نادي الأمم المستقلة في العالم حيث تتجسد إرادته بأروع صورة، وينعكس ذلك من خلال حكومته وبرلمانه بكل مكوناته السياسية؛ إذن هو يوم من أيام الله (تبارك وتعالى) ليس كبقية الأيام، وفي الوقت الذي نحتفل فيه بهذا اليوم ندرك جيداً أننا أمام سؤال كبير: ماذا بعد الانسحاب؟..

تقع علينا المسؤولية بعد الانسحاب بأننا ينبغي أن نفكر، وننظر، ونكرّس كل ما لدينا من طاقة، وتحشيد ما لدينا من إمكانيات في بناء العراق الجديد.. في سبيل تطوير الخدمات والارتقاء بها إلى مستوى طموح شعبنا، وبما يضاهي بلدان العالم المتقدمة.

بعد الانسحاب يُفترض أن نشهد تنافساً وتسابقاً بين القوى السياسية بأنها كيف تتبارى لاختزال زمن الصعود؛ حتى ترتقي إلى قمة المجد، وتطور إمكانياتها الاقتصادية في الحقل الصناعي والتجاري والزراعي، وأن تحترم القضاء، وتلتزم به.

إن القضاء عنوان حضارتنا، مثلما هو عنوان حضارة أمم العالم كلها، وإذا أردت أن تقيس درجة حضارة أي بلد من بلدان العالم فانظر إلى مدى استقلال السلطة القضائية... حين يكون القضاء مستقلاً، وحين ينأى بنفسه عن تدخل أي سلطة أو شخصية، ويتعافى من أي نعمة طائفية أو عنصرية أو سياسية يأمن المواطنون كلهم في ظله؛ لذا تميزت بلدان العالم المتقدمة بأن سلطاتها القضائية سلطة محترمة، وقد قدّم القضاء العراقي نموذجاً رائعاً للعالم يوم أقيمت هنا في بغداد محكمة للمجرم الدكتاتور صدام، واستغرقت وقتاً طويلاً من الزمن استمر ثلاث سنوات وسبعة عشر يوماً من 2003/12/13 إلى 2006/12/30 في الوقت التي طوت بما تسمى محكمة نورنبرغ أكبر محكمة في التاريخ ملفات وسجلات الحرب العالمية الثانية بكل تضحياتها في عشرة أشهر وعشرة أيام من عام 1945 نوفمبر/ تشرين الثاني إلى 1946 أكتوبر/ تشرين الأول.

القضاء العراقي كان أثبت للعالم أنه لا تعسف، ولا دكتاتورية، ولا تسرع، وقد تجلّت الحرية بأروع صورها؛ لأن الشعب من خلال حكومته يحاكم دكتاتوراً كان عدواً للشعب، ولم يترك جريمة إلا وارتكباها.

هل سمعتم في تاريخ الأمم القديم أو المتوسط أو الحديث أو المعاصر أن يُحكّم على حزب، وعلى من ينتمي إليه بالإعدام وبأثر رجعي، أين حقوق الإنسان؟... لقد اراد نظام البعث بذلك (اي: الاعداد باثر رجعي لكل من ينتمي لحزب الدعوة الاسلامية) أن يشمل بذلك الإعدام عملاق الفكر والرائد المرجع الكبير السيد محمد باقر الصدر.. سكت العالم كله، وأصيب بالخرس، ومع ذلك فهذا الحزب الذي تفرّد، وحول مؤسسات الدولة كلها إلى واجهات تجسّس، وحاول أن يخترق الأسرة ومؤسسات الدولة، وما ترك فرصة إلا وتغلغل فيها؛ فاعتبرها ظاهرة من ظواهر التجسّس والتلصّص على المواطنين.. دونكم في ذلك ما أشاع من ماكنة الموت التي طحنت آلاف بل عشرات الآلاف بالأنفال وحلجة والانتفاضة الشعبانية، ودفن 350 ألف بريء وهم أحياء، وكذلك الانتفاضة التي حصلت في الأنبار، واستشهد فيها الشهيد محمد مظلوم.

كثيرة هي بصمات الإجرام، وكثيرة هي الرموز الذين خرّوا صرعى من مواقع الفكر والجهاد والإصلاح، كان محمد باقر الصدر، وكان الشهيد عبد العزيز البدري، وكان الشيخ ناظم العاصي، وكان الشيخ عارف البصري، وكان السادة من آل الحكيم، والكثير الكثير من هؤلاء خرّوا صرعى لنزوة حكم بغفلة من التاريخ حكم الدكتاتور صدام.

ماذا علينا أن نفعل بعد أن انسحبت القوات الاجنبية؟... استقلال القضاء سمة أساسية، ولا بد أن نحافظ عليها، وفي الوقت نفسه لا بد لنا أن نعمل على تكريس استقلال السلطات الثلاث (التنفيذية، والتشريعية، والقضائية)، ولا بد للبرلمان أن يأخذ دوره كبيت للشعب ومنبر يدوّي فيه صوت النواب معبرين بأمانة عن صوت المواطنين، ويمارسون دورهم بشكل بناء، ويشكلون حضوراً واعياً وحرصاً أكيداً على حفظ وحدة البرلمان؛ لأنهم جميعاً يمثلون الشعب كله؛ لذلك تكون علينا المسؤولية بأوج عظمتها في مثل هذا الطرف بالذات خصوصاً أن العراق يوشك أن يحتضن الدورة القادمة لجامعة الدول العربية المزمع عقدها في هذا العام بإذن الله (سبحانه وتعالى)، ولا بد أن نعيد لجامعة الدول العربية الأولويات ما إنهم يتناكفون، ويختلفون في البيان الختامي وفي بعض الأحيان ينتهي بمجرد انعقاد وزراء الخارجية العرب.

القضية الفلسطينية لا بد لها أن تحتل الرقم الأول في سلّم أولويات الجامعة العربية خصوصاً أن الدورة القادمة ستشهد اندحار بعض الأرقام واختفاءها من المسرح الذي صالت، وجالت فيه (صدام ومعمر القذافي وحسني مبارك وبن علي) عزلتهم شعوبهم.

ستحتضنهم بغداد العاصمة المتسعة بمكانها والموشحة بنظام يتداول السلطة، وبأقل من عقد من الزمن تتعاقب سلسلة حكومات بطريقة سلمية.

الآفة التي أكلت تلك الحكومات في (الحراك الشعبي العربي) هي عُقدة التآبد، وعُقدة التوريث، ولا تآبد في أنظمتنا في العراق، ولا توريث لأبنائنا؛ لذلك سيحتضنهم العراق بفكر جديد، وتجربة جديدة، ومشاركة متسعة ببرلمان يحتضن كل أبناء الديانات والمذاهب، كل القوى السياسية من الجنسين، على الرغم من أننا لانزال

نعتقد أن المرأة لم تأخذ حجمها كما ينبغي لا في البرلمان ولا في الحكومة ولا في الأعراف والتقاليد، لكنها بكل تأكيد قطعت شوطاً طويلاً؛ إذن هم أمام تجربة رائعة في العراق، وعليهم أن يتأملوها.

بغداد ستحتضن مؤتمر القمة العربية بأجواء مُفعمة بالعطاء، وقدرة على أن تساهم في حل المشاكل العربية - العربية، والعربية - العالمية، وقد قلتُ هذه الجملة بالذات في زيارة الأخ عمرو موسى أمين عام جامعة الدول العربية السابق حين زارنا إلى بغداد، وحضر معنا في مجلس النواب: بأن العراق سيساهم في حل المشاكل العربية - العربية، والعربية - العالمية، أما المشاكل العراقية - العراقية فالعراق جدير بحلها، نحن لا ننفي بأن هناك مشاكل لاتزال تواجهها في الوضع العراقي غير أن العراقيين أثبتوا أنهم جديرون بحلها.

لا نستطيع أن نتصور عملية سياسية بلا مشاركة، كما لا نتصور حزباً بلا مشاركة، وقائمة برلمانية بلا مشاركة، بل لا نتصور أسرة بلا مشاركة، بل لا نتصور علاقة زوجية بلا مشاركة. ماذا يعني عدم المشاركة؟... يعني التفرد، ويعني قمع الآخر، ويعني إلغاء الآخر، لا نتصور عملاً بأي مرتبة من مراتب المصاديق الاجتماعية بلا وجود الآخر، فالآخر موجود وهو جزء من حياتنا، بل لا نستطيع أن نتصور إنساناً لا يختزن الآخر في داخله بأنه اليوم ليس كما الأمس، ويتطلع إلى غد ينتقل فيه من الذات الأنية إلى الذات المستقبلية، وإلا لماذا يقول أمير المؤمنين علي (عليه السلام): (من تساوى يوماه فهو مغبون).

لأنك اليوم لست كما كنت بالأمس، ولا يُفترَض أن تكون في الغد كما أنت اليوم.. هذه هي حركية الإنسان نحو الآخر بكل مكان حتى مع الآخر الذاتي، فلا ينبغي أن ننكر الآخر من حياتنا، الحكومة الآن فيها عدة قوى سياسية، والبرلمان فيه عدة قوى سياسية، وما من مؤسسة من مؤسسات الدولة العراقية الحديثة إلا وفيها قوى سياسية تتجسد بشكل متكامل.

لا ينبغي أن نكتفي بأننا أحسننا البدء، إنما يجب أن نحسن الاستمرار، وأن نحافظ على هذه النعمة الكبيرة.. شعبنا شاهد علينا بأننا يجب أن نحافظ على هذه التجربة، ونستمر، ونتواصل فيها، ومن جملة ما يقع علينا من مسؤولية بعد الانسحاب هو رعاية الكفاءات العراقية الموجودة في الداخل، والتي لاتزال تعاني من الإهمال وكذا الكفاءات العراقية التي هُجرت إلى الخارج والتي تعاني من العزوف عنها ومن الإهمال حيث آلاف الأطباء اليوم يقطنون بلدان الغرب، وعمّروا مستشفياتهم هناك.. كبرى مستشفيات بريطانيا لا تخلو من أطباء عراقيين والعراقيون يقفون طوابير على باب السفارات البريطانية في الأردن؛ حتى يذهبوا إلى بريطانيا.

فكرنا بشكل جدي كيف نستقطب هؤلاء، ونأتي بهم إلى العراق، ونضع حداً لهذه المهزلة، فطاقات خلّاقة موجودة في العراق مهملة، وتعاني من نقص الأجهزة الطبية، ومن بعض المستلزمات الأخرى، وطاقات طبية عراقية موجودة في الخارج

تنتظر من يرعاها، ويستقطبها، إلى الأمس القريب كانت هناك تحديات أمنية، واليوم وبعد التحسن الأمني - والله الحمد - علينا أن نفكر باستقطاب هذه الطاقات.

لا أفهم حيوية دولة بموت أجزائها، حياة الدولة بكل جزء من أجزائها بالفن والأدب والشعر والإعمار والبناء وكل مرفق من مرافق الدولة يجب أن نبعث الحياة فيه، ونكرس له ما يستحقه من طاقات وإمكانات، تنتظرنا الكثير من الجهود التي لو تضافرت لاختزلت زمن البناء.. يجب أن نحافظ على الوحدة الوطنية العراقية، وقد جرّب أعداء العراق أن يلعبوا على الحبل السني - الشيعي، وباءت تلك المحاولات الطائفية بالفشل.

علينا أن نجسّد هذه الوحدة، ونحافظ عليها مادام شعبنا مُصِراً عليها، وقد جسّدناها في أعرافه الاجتماعية في كل مدينة من مدن العراق، وبكل قبيلة من قبائل العراق، بل برُبّع عوائل العراق الـ 26% وتسعة بالعشرة من العوائل العراقية الذين تزوجوا من السنة والشيعية.

علينا أن نحافظ على هذه الوحدة، ونتخذها قاعدة أساسية يقوم عليها صرح العراق الجديد، ولا بد أن أحيي من هذا المنبر كل أبطالنا الشهداء، وأحيي أيتامهم وأراملهم وثكالا لهم، ولا بد أن أسترعي أجهزة الدولة بأن تعطيهم الأولوية، وتنتصر لهم، لا يمكن أن نكافئ الشهيد الذي قدّم حياته من أجلنا جميعاً.. لا يمكن أن نجازيه بشيء لكن أدنى درجات الوفاء هو أن نرعى الشهداء وعوائلهم وأيتامهم وأراملهم وثكالا لهم. الأمة التي لا تحترم شهداءها لا تستحق الحياة، وكل أمم العالم اليوم تغوص في التاريخ؛ حتى تستخرج شهيداً من غابر القرون، وتتغنى به، ونحن شعب الشهداء، ولا يخلو بيت من بيوتنا إلا وفيه شهيد إن لم يكن أكثر من شهيد.. زرع هؤلاء من خلال دمائهم ما نحصد اليوم من استقلال وحرية.. ببركة دماء الشهداء، وعلينا اليوم أن نزرع من هذا الجيل بذور الفكر والأخوة والوحدة والبناء؛ حتى تحصد الأجيال القادمة ثمار الزرع الذي نزرعه هذا اليوم.

تحية إكبار، وتقدير، واحترام لكل هؤلاء الشهداء، وتحية إكبار، وتقدير للمرجعيات الدينية التي استشهدت، والتي حُوصرت، وسُجّنت، والتي واكبت، وتفاعلت، وساهمت في دفع العملية السياسية بطرف كانت تعلو فيه بعض التخرّصات بفقّه الإرهاب، وثقافة الإرهاب، وثقافة التعصّب الطائفي، ونجدها بالمقابل وبالمعادل صوتاً يدوي؛ فكانت صوت الوحدة، وصوت المحبة.

لا بد أن نحافظ على هذه الإنجازات، وأن ينظر بعضنا إلى البعض الآخر على أنه متمم وليس مخصصاً.. نحن بأمس الحاجة إلى كل القوى الخيرة التي عليها أن تشعر بأن الحكومة حكومتها، وأن البرلمان برلمانها، وأن السلطة القضائية سلطتها، وعلينا جميعاً أن نتكاتف؛ لحفظ العراق والعبور إلى المستقبل بأحسن ما يكون. السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.